ديزيره سقال

ملاك الانتظار



دار كتابات

ديزيره سقال

ملاك الانتظار

٢٠١٧

الطبعة الأولى بيروت ٢٠١٧

دار كتابات

بيروت – لبنان / هاتف + فاكس ٨٢٣٤٥٨ / ٠١
هاتف: ٣١٢٧٣٣ / ٠١ ص.ب.: ١٣٦١٠١

إهداء

إلى يولا التي غابَتْ، ولكنّها لم ترحَلْ، بل تظلّ حاضرةً أبدًا في القلب والبصيرة، وفي كلّ ذرّة من حولي، ملاكًا يقود خطاي، ويحرسني من السماء.

مَلاكٌ تَراءى
فَأَزْهَرَ قَلْبي
وَضاءَتْ بِروحي زَوايا السَّماءْ...
وَما كُنْتُ أَعْرِفُ
أَنّي انْتَظَرْتُ تَجَلّيهِ فِيَّ
طَوالَ حَياتي،
وَأَنّي بِعَيْنَيْهِ أَرْسُمُ ذاتي
وَقَدْ فَتَحَتْ فِيَّ بَسْمَتُهُ
كُلَّ هذا الرَّجاءْ...
وما كُنْتُ أَعْرِفُ
أَنّي تَكَوَّنْتُ فيهِ،
وَكَوَّنْتُ مِنْ ناظِرَيْهِ المدى وَالفَضاءْ
وَكانَ مَلاكَ انْتِظاري
يَجيءُ إِلَيَّ مِنَ الملَكوتِ

وَيَجْعَلُ قَلْبِيَ بُسْتانَ وَرْدٍ
وَيَعْبُرُ مُنْخَطِفًا كالشَّرارِ
لِيَتْرُكَ عُمْري
قصيدةَ حُبٍّ،
ولَوْنَ غِناءْ،
وَبَسْمَتُهُ اخْتَصَرَتْ في حَياتي
جَميعَ النّساءْ...

فصل التكوين

- ١ -

في البَدْءِ كانَ العَماء...
لَم يكُنْ شَيْءٌ مِمّا يُمكِنُ أَنْ يُتَصَوَّرَ حاضِرًا.
كان الغِيابُ يُهَيْمِنُ على البَسيطَةِ
وَالفَضاءُ خَواءً مُطْلَقًا، لا دِفْءَ فيهِ ولا بَرْدَ،
كانَ الصَّمْتُ روحَ الغِيابِ، والشعورُ لا مَكانَ لَهُ،
وَالجِهاتُ لَمْ تُعرَفْ، ولا عُرِفَتِ السِّعَةَ...
ثمَّ انْفَتَحتْ عَيْنُ النورِ، وانْدَفَقَ الحُبُّ
فَكُنْتِ أَنْتِ،
وَكُنْتِ أَكْثَرَ صَفاءً منَ النورِ،
وَأَرَقَّ مِنْ رَهافَةِ الحُبِّ...

وَكُنْتِ قَلْبَ الحُضورِ النابِضَ، فانْبَثَقَ كُلُّ شَيْءٍ،
وَارتَدَتِ الجِهاتُ مَعانِيَها مِنْكِ:
صِرْتِ أَنْتِ الجِهاتِ التي تَعْتَمِدُ بالنّورِ،
صِرْتِ أَنْتِ الذّاتَ التي يَشِعُّ منها الحُضورُ – كُلُّ حُضورٍ،
وَمِنْكِ انْبَثَقْتُ...

***

نَبَضَ الحُبُّ في قَلْبِ الرَّبّ أَكْثَرَ، وَهُوَ يَنْظُرُ إِلَيْكِ تَتَّشحينَ بِقَلْبِهِ وَنورِه، وتُرَتِّلينَ بِحَنْجَرَتِه، تُواكِبُكِ أَصْواتُ المَلائِكَةِ، وَيَحمِلُ قَلْبَكِ المفتوحَ للصلاةِ كُلَّ أناشيدِ السَّماءِ وَهِيَ تَغوى بِكِ، فَتُشْرِقينَ بعَيْنَيكِ مِن أعالي السَّمْتِ على سُفوحِ الحضورِ الوارِفَةِ.

هكَذا خَشَعَ الفردَوسُ لكِ حينَ رآكِ تَنْزلينَ

مِنْ أعالي السِّدْرَةِ، مُجَلَّلَةً بِبَخورِ الرَّبِّ، تَحْمِلينَ أنوارَ الطّوبى كُلَّها، وزيوتَ القِدّيسينَ، وصلاةَ الملائكةِ جميعًا، وابْتِساماتِ الطُّفولةِ البيضاءِ.

كانَتِ الأَرْضُ صَحراءَ مُنْبَسِطَةً، فتَفَجَّرَتْ مِنْ شَعرِكِ الينابيعُ والسّواقي، وَاندَفَقَ المطرُ مِنْ يَدَيْكِ المسْبَلَتَين، وانْبَثَقَ النَّبْتُ مِنَ التُّرابِ، وَغَنَّتِ الريحُ لِرُؤوسِ الأَشْجارِ الحانِيَة تَرْتيلةَ قَلْبِكِ الوادِعِ...

هكذا حضَرَتْ ذاتي، وصِرْتُ بِكِ أَشَدَّ حضورًا مِنَ النورِ، وَأَكثَرَ صَفاءً مِنْ قلوبِ الملائكةِ، وَأَشَدَّ تَأَلُّقًا مِنْ شُعاعاتِ السَّمْتِ...
هكَذا صِرْتُ مِنْكِ كِيانًا وَروحًا وبَشَرًا،
وَٱبْتدأَ الشِّعْرُ...
وَبِكِ أَنْتِ، بِكِ وَحْدَكِ، كَتَبْتُ القصيدَةَ...

***

غُيومُ الرُّؤى تَتَجَمَّعُ فِيَّ
وقَدْ خرَجَتْ مِنْ صَلاةِ فُؤادِكِ.
كُلُّ الرُّؤى مِنْكِ تَحْمِلُ ذاتي
وَتَجْبُلُني بِالضِّياءْ.
تَفَتَّحْتِ في خاطِري،
حينَ كوَّنْتِني،
كَرَذاذِ الفَرَحْ،
وَانْحَدَرْتِ إِلى مُهْجَتي
غِبْطَةً تَتَجلّى
وَقَوْسَ قُزَحْ...
وَأَكْمَلْتِ في قَلْبِيَ اللهَ
حينَ حُمِلْتِ إِلَيَّ
على غَيْمَةٍ مِنْ بَهاءْ
تُشَرِّعُ عَيْنَيَّ لِلنورِ،
تَرْسُمُ بالنورِ في مُقْلَتَيَّ حُدودَ السَّماءْ...

- ٢ -

قَبْلَكِ لَمْ أَكُنْ.

كُنْتُ مَحْوًا يَبْحَثُ عَنْ ذاتٍ.

كُنْتُ صَدًى يَبْحَثُ عَنْ صَوْتٍ.

كُنْتُ غِيابًا يَبْحَثُ عَنْ حُضورٍ يَتَلاشى فيهِ.

كُنْتُ صَمْتًا يَبْحَثُ عَنْ حَرْفٍ يَنْفَتِحُ فيهِ عَلى الصَّوت.

كُنْتُ مَعْنًى يبْحَثُ عَنْ كَلِمةٍ...

قَبْلَكِ لَمْ أَكُنْ.

كُنْتُ ظِلًّا يَبْحَثُ عَنْ ماهِيَّةٍ، وانْتِماءً يَبْحَثُ عَنْ وَطَنٍ.

ثُمَّ

صِرْتِ وَطَني، وانْتِمائِيَ المطلَقَ الَّذي ارْتاحَتْ

فيهِ ذاتي وَصارَتْ ذاتًا.

صِرْتِ جَسَدي أَسْتَقِرُّ فيهِ على ثَرًى عَثَرْتُ عَلَيْهِ.

صِرْتِ روحي تَحْمِلُ في طَيّاتِها نَفَسَ اللّهِ، ونورَ اليَقينِ.

صِرْتِ قَلْبي يَضِجُّ بالأَحاسيسِ، بَعْدَ أنْ كانَ خَواءً بارِدًا.

صِرْتِ أَبْجَدِيَّتي الَّتي تَقولُ ذاتي.

صِرتِ الشِّعْرَ.

صِرْتِ قَصيدَتيَ ٱلَّتي أُعْلِنُ بها عَنْ حُضوري في الوُجودِ المليءِ –

قَصيدَتِيَ ٱلَّتي لَمْ أَكْتُبْ غيرَها:

كُلُّ حرْفٍ كَتَبْتُهُ كانَ مِنْكِ وَلَكِ.

كُلُّ لَفْظَةٍ قُلْتُها كانَتْ مِنْ فَمِكِ، وَمِنْ أَجْلِكِ.

كُلُّ أُهزوجَةٍ خَرَجَتْ مِنْ حَنْجَرَتي كانَتْ بِكِ لِتُغَنِّيَ لَكِ.

كُلُّ نَبْضَةٍ مِنْ قَلْبي كانَتْ تَخْرُجُ مِنْ قَلْبِكِ لِتُعَطِّرَ العالَمَ.

كُلُّ ابْتِسامَةٍ كانَتْ تُشْرِقُ مِن ابْتِسامَتِكِ لِتَحْمِلَ الوُجودَ إِلى قَلْبِ الرَّبِّ الدّافِقِ بِالحُبِّ.

وَأَنْتِ... أَنتِ القصيدةُ البِكْرُ التي لَمْ يَكْتُبْها سِوايَ،

وَلا عَرَفَ حَرْفًا مِنْها غَيْري،

لِأَنَّ حُروفَها نَظَراتُ عَيْنَيْكِ

وَنَبْضَ إيقاعِها ابْتِسامَتُكِ الإلَهِيَّةُ،

يا امْرَأَةً مِنْ نورٍ وَصَلاةٍ،

يا مَلاكًا مِنْ فَرَحِ الرَّبِّ،

يا مَلاكَ الانْتِظار...

فَصل المثول أمام هَيكل الذات

- ١ -

أَرْكَعُ، وَحْدي، أمامَ هَيْكَلِ ذاتِكِ.
أَرْكَعُ، وَحْدي، خاشِعًا في قُدْسِ عَيْنَيْكِ،
أَرْكَعُ، وَحْدي، أَمامَ صَلاةِ ابْتِسامَتِكِ.

أَرْكَعُ لِأَمْتَلِئَ بِكِ، وَأَخْرُجُ مِنْ شَرْنَقةِ ذاتي إِلى سَماءِ ضَوْئِكِ، فَأَنْهَلُ مِنْهُ البَقاءَ، وَأَسْتَمِدُّ عَبْرَهُ نورَ الرَّبِّ.

خالٍ مِنْ كُلِّ ما حَوْلي . . .

خالٍ مِنَ الحضورِ، مِنَ الغيابِ، مِنَ الصَّمْتِ وَالضَّجيجِ، مِنْ قشورِ التَّناقُضِ في كَوْنِ الخارِجِ.

خالٍ مِنْ كُنْهِ النّاسوتِ وَالْتِصاقِ الصِّفاتِ . . .

خالٍ مِنّي . . .

أَمْثُلُ أمامَ هَيْكَلِ ذاتِكِ، أَمامَ قُدْسِ الأَقْداسِ، لِأَمْتَلِئَ بِهِ.

كلُّ شيءٍ حولي أَبْيَضُ.

كلُّ شيءٍ مُمْتَلِئٌ بِكِ . . .

كانَ العُمْرُ مِثْلَ خَيْطِ النورِ يَنْهَلُّ رَذاذًا عَلى عَيْنَيَّ، والمكانُ بِلا حُدودٍ: أُفُقًا مِنَ الضَّوْءِ يُحيطُ بي مِنْ كُلِّ صَوْبٍ.

هَكَذا، مُنْذُ عَرَفْتُكِ، عَرَفْتُني، وَخَرَجْتُ مِنْ قِشْرَةِ ذاتي، وَانْفَتَحَتْ عَيْنايَ على كُنْهِ الجَمالِ، وقَلْبي على كُنْهِ الحياةِ. كُنْتُ أَقْفِزُ في بَراري بَهائِكِ، أُطارِدُ فَراشَ الملائِكَةِ وَهُوَ يَتَقافَزُ

حَوْلَ روحِكِ، وَأَطْرَبُ لِتَراتيلِ السَّماءِ تَرْشَحُ
مِنْ حُروفِ كَلِماتِكِ. وَحينَ يُرْهِقُني ضَجيجُ
العالَمِ آوي إِلَيْكِ، فَيَكْسوني سُكونُكِ بالرّاحَةِ،
وَيَحْمِلُ إِلَيَّ سَكينَةَ الفِرْدَوسِ . . .

هَكذا، منذُ عَرَفْتُكِ، سَكَنْتُ جَنَّةَ الحُبورِ،
فَاسْتَفاقَتْ ذاتي فيكِ، وَاجْتَمَعَتْ فِيَّ كُلُّ نُجومِ
الصَّلَواتِ، وَكُلُّ أَهازيجِ المحبَّةِ وَهِيَ تَنْحَدِرُ مِنْ
حَنْجَرَةِ الرَّبِّ، لِتُكَلِّلَ الأَرْضَ بِبَهاءِ الخَلْقِ.

هَكَذا رُحْتُ أَكْتُبُني . . . وَتَخُطُّ كُلَّ حَرْفٍ فِيَّ
نَظْرَتُكِ الوادِعَةِ . . .
هَكذا كانَتْ تَكْتُبُني لُغَتُكِ الملائِكِيَّةُ،
وَتَغُطُّ قَلبي بِمِدادِ رِقَّتِكِ.
هَكذا بَدَأَتْ قصيدتي مِنْكِ، وَخَرَجَتْ مِنْ
صَفاءِ السِّدْرَةِ لِتَنْزِلَ عَبْرَ عَيْنَيْكِ إِلى تَوَقُّدِ قَلْبي.
اكْتَشَفْتُ فيها تَجَلِّياتِ اللونِ، وَمَعْنى الحَرْفِ

عِنْدَما يَمُرُّ بِنورِ عَيْنَيْكِ، وَصَفاءَ اللُّغَةِ وَهِيَ
تَتَجَسَّدُ في امْرَأَةٍ مِنْ أَثيرٍ.

هَكَذا بَدَأَتْ رِحْلَتي فيكِ لِأَكْتَشِفَ فِرْدوسَ
الحياةِ: فَتَحْتِ لي بابَهُ، وَمَهَّدْتِ الطَّريقَ
لِأَدْخُلَ. —
كُنْتِ البابَ، ولا مَكانَ آخرَ لِلدُّخولِ مِنْهُ.
كُنْتِ الهُيامَ، ولا مَدًى سِواكِ لِلطَّوافِ.

كُنْتِ العِشْقَ حِينَ تَنْحَلُّ الأَشْياءُ صلاةً في نَقاءِ
كِيانِكِ.

هكذا بَدَأَتْ رِحْلتي . . .

كانَتْ يَدُكِ تَسْحَبُني مِنْ وُحولِ الواقعِ إِلى نسائِمِ
العُلى. كانَتْ يَدُكِ نَسيمًا رائِعًا، يَطيرُ بي إِلى
فَضاءاتِ الحُلُمِ، فَأَسْكُنُ، هانِئًا، في خُشوعِ
عَيْنَيْكِ، ولا أَعودُ . . .

- ٢ -

عَلَّمْتِني أَنْ أَكونَ، فَهامَتْ بي زَوايا الجَنَّةِ لِأَنَّني مِنْكِ.

عَلَّمْتِني أَنْ أَكونَ، فَفاضَ الشِّعْرُ مِنْ قَلْبي لِأَنَّهُ تَعَرَّفَ إلى قَلْبِكِ.

عَلَّمْتِني أَنْ أَكونَ، فَعَمَّرَتِ الشَّمسُ أَبْراجَها حَولي لِأَنَّني انْتَمَيْتُ إِلَيْكِ.

وكان أَنْ نَشَقْتِ حَياتي، جَميعَ حَياتي، بِنَظْرةٍ واحِدةٍ مِنْكِ. مَسَحْتِها وَكَتَبْتِها، آنَ كانَتْ لا تَزالُ في ٱلْتِماسِ طَريقٍ، وَجَعَلْتِ مَداميكَها نَفَسَكِ الرائعَ، وَحضورَكِ الإِلَهِيَّ، وَحنانَكِ الذي يَرْشَحُ مِنْ قَلْبِكِ كما يَرْشَحُ الزَّيْتُ المقَدَّسُ مِنْ مَسامِّ القِدّيسينَ.

وكانَ أَنِ انْفَتَحَتْ عَيْني على الدُّنيا مِنْ خِلالِ

فِرْدَوْسِكِ، وَأَنْزَلْتِني ذاتي مِنْ ذاتِكِ، لِتَنْحَدِرَ إِلَيَّ، وَتَمُرَّ مَعي بِتَجْرِبَةِ الواقِعِ، وقَدْ تَرَكَتْ جانِبًا ثَوْبَها السَّماوِيَّ...

عَلَّمْتِني أَنْ أَكونَ في مَقامِ الكِبَرِ وَأَنا في كيمياءِ التَّواضُعِ،

عَلَّمْتِني أَنْ أَكونَ شامِخَ الجَبينِ وَأَنا مُطَأْطَأُ الرَّأْسِ مِنَ القَناعَةِ.

عَلَّمْتِني أَنْ أَكْبَرَ حينَ أَكونُ صَغيرًا، وَأَنْ أَصْغُرَ في كِبَري.

عَلَّمْتِني أَنْ أَكونَ شَفّافًا كالفَجْرِ حينَ أَقولُ،

وَرَقيقًا كَالنَّسيمِ عِنْدَما أَغضَبُ،

وقاطِعًا كَالسَّيْفِ عِنْدَما أَنْتَمي...

وَلَمْ أَعْرِف

أَنَّ بَيْنَ روحِكِ وبَيْني هَذِه السُّرَّةَ الرَّهيفَةَ، وهذا الاكْتِمالَ المذْهِلَ،

وَأَنَّ ذاتي لا وُجودَ لها إِلّا عَبْرَ ذاتِكِ،

وَأَنَّ الطَّريقَ التي أَعْبُرُها لَمْ يُمَهِّدْها لي غَيْرُ عَزْمِكِ الدّافِق...

كُنْتِ النورَ وَأَنا في قَلْبِ الظَّلامِ.

أَخْرَجْتِني إِلَيْكِ، فَضاءَتْ نَفْسي حينَ سَجَدْتُ فيكِ.

مَسَحْتِني بِزَيْتِ رِقَّتِكِ فَبَرِئَتْ ذاتي مِنَ الوَهَنِ،

وَاغْتَسَلْتُ بِكِ مِنْ غُبارِ الدنْيا –

اغْتَسَلَ الليْلُ في عَيْنَيْكِ، فَصارَ ضِياءً.

اغْتَسَلَ عالَمي في عَيْنَيْكِ، فصارَ أَثيرًا.

اغْتَسَلَتْ عَيْناي بِنورِ عَيْنَيْكِ، فَصِرْتُ أَرى اللهَ

يَخْرُجُ مِنَ السِّدْرَةِ لِيُبارِكَ قلبي بِبَخورِ الشِّعْرِ...

كُلُّ ما فِيَّ صارَ أَبْيَضَ بِأَثيرِ العِشْقِ...

أُفْرِغْتُ مِنّي، وَامْتَلأْتُ بِكِ.

أُفْرِغْتُ مِنْ روحي وَامْتَلأْتُ بِروحِكِ.

انْكَسَرْتُ وَانْعَجَنْتُ. كُوِّنْتُ بِكِ أَكْثَرَ إِشْراقًا مِنَ الجَمالِ، وَأَصْفى مِنْ لُهاثِ الأَثيرِ...

واخْتَصَرْتِ النساءَ، جَميعَ النساءِ، بِبَسْمَتِكِ الإِلَهِيَّةِ،

يا امْرَأَةَ الحاضِرِ والماضي والآتي،

يا امْرَأَةً مِنْ نورٍ وَأَريجٍ،

يا امْرَأَةً مِنْ صلاةٍ،

يا ملاكَ الانْتِظارِ...

***

كُلُّ هَذا المدى

يَتَبارَكُ فيكِ بِذاتِكِ –

كُلُّ المكانِ وكُلُّ الزَّمانِ...

وفيكِ عَرَفْتُ اخْتِصارَ الأُلوهَةِ

في نَظْرَةٍ

رَفَعَتْني إِلَيْكِ

لِيَنْكَشِفَ اللهُ مِلْءَ كِياني...

كُلُّ ذاتي تَكَشَّفَ فيها الضِّياءُ

لِأَنَّكِ كاشَفْتِها

أَلَقًا مِنْ عُطورِ السّماءِ

وَمِنْ غِبْطَةِ الملَكوتِ...

تَجَلَّيْتُ فيكِ

لِيَكْتَمِلَ اللهُ فِيَّ،

وَمِنْكِ شَمَمْتُ أَريجَ الصّلاةْ

وَحُمِّلْتُها في عُروقي بَخورًا

وَلامَسْتُ في قَلْبِكِ المتَفَتِّحِ

نورَ الحَياهْ...

فكَيْفَ، إذًا، لا تَكونينَ أَنْتِ

شُعاعَ حياتي

وَنورَ الإلَهْ...؟

أَسْجُدُ وَحْدي في صَوْمَعَةِ عَيْنَيْكِ.

لا شَيْءَ غَيْرُ الأَلَقِ السَّماوِيِّ يُحيطُ بي، وَالفرَحِ الطّافِرِ مِنَ قلْبِ الملَكوتِ.

لا شَيْءَ غَيْرُ الحُبورِ الصّافي يَنْهَلُّ عَلَى قَلْبي لِيَنْهَضَ بِهِ إِلَيْكِ،

وَكُلُّ ما حَوْلي رَنينُ غِبْطَةٍ، وَعَبَقُ سَماءٍ...

***

أَسْجُدُ، وَحْدي، في صَوْمَعَةِ عَيْنَيْكِ.

أَصْعَدُ، عبْرَ مِعْراجِ الفَرَحِ، إِلى أَثيرِ الوَحْيِ...

تَطيرُ بيَ الرُّؤْيا إِلى مَسارِبِ الأُلوهَةِ، حَيْثُ تَحُوِّمُ حَوْلَ روحِكِ الملائِكَةُ، وَيَرْفَعُها قَوْسُ قُزَحَ إِلى جِهاتٍ لَيسَ فيها غَيرُ رَذاذِ النورِ.

أَصْعَدُ أَصْعَدُ إِلى أَبْراجِ حَنانِكِ، حَيْثُ يَفيضُ لَحْنُ الضِّياءِ، وَيَرْتَمي الكَوْنُ خاشِعًا خارِجَ قُدْسِ أَقْداسِكِ،

وَأَنْتِ الروحُ التي تُلْقي في تُرابِهِ البِذارَ،

أَنْتِ الماءُ الذي يَمْسَحُ تُرابَهُ بالخِصْبِ،

أَنْتِ الشَّمْسُ التي تَحْمِلُ إِلَيْهِ الدِّفْءَ وَالنَّماءَ...

أَنْتِ الأَلِفُ والياءُ في سِرِّ الكَلِمَةِ...

كُلُّ ما فِيَّ بِكِ كُوِّنَ، وَلَمْ يَكُنْ فِيَّ، مِنْ غَيْرِكِ، أَيُّ شَيْءٍ.

بِكِ أَنْتِ أَضَأْتُ أَنا في ظُلْمَةِ دَرْبي،

بِكِ أَنْتِ شَقَقْتُ ذاتي، وَخَرَجْتُ إِلى النّورِ،

بِكِ أَنْتِ غَسَلْتُ الحَرْفَ وَالكَلِماتِ...

بِكِ، وَحْدَكِ، كُنْتُ هذا الكِيانَ الذي يَحْتوي

الكَوْنَ، وَيَقْرَأُ في الطّبيعةِ فَيْضَ الحُبِّ الإلَهِيِّ...

انْتَظَرْتُ أَنْ أَرى –

قَبْلَكِ ما كُنْتُ رائِيًا: صِرْتُ رائِيًا بِعَيْنَيْكِ –

وَحينَ مَسَسْتِني، انْفَتَحَتْ روحي على الفِرْدَوسِ، وَتَعَلَّمْتُ أَنْ أَسْمَعَ تَراتيلَهُ بِأُذُنِكِ، وأَقْرَأَ إنْجيلَهُ بِشَفَتَيْكِ وَلِسانِكِ، وَأَشْتَمَّ بَخورَهُ المُتَصاعِدَ بِأَنْفِكِ.

انْتَظَرْتُكِ قَبْلَ أَنْ أَكونَ وَبَعْدَ...
وَحينَ انْبَثَقْتِ مِنّي إلَيَّ
ٱلْتَفَّ عالَمي بِقَوْسِ قُزَحَ،
وَتَسَرْبَلَ بِالغِبْطَةِ النّاضِحَةِ مِنْ شَفَتَيْكِ،
وَتَلَوَّنَ بِأَلْفِ صَلاةٍ
يا مَلاكَ الانْتِظارِ...

فصل الخروج إلى العالم

– ١ –

مَعًا نَنْزِلُ مِنْ ذاتِنا المشْرِقَةِ إلى أَرْضِ العالَمِ...

نَحْمِلُ إِلَيْهِ رِقَّةَ الالتئامِ، وَسلامَ الوَحْدَةِ إِذْ تَفْتَحُ على الواقعِ عَيْنَ الضَّوْءِ الرَّقيقِ، وهدوءَ السَّكينَةِ.

مَعًا نَنْزِلُ مِنْ ذاتِنا، لِنَجْعَلَ العالَمَ أَكْثَرَ امْتلاءً، وَأَغْنى صِدْقًا وَحرارةً.

مَعًا نَنْزِلُ لِنَمْسَحَ «الحَرْبَ» القاسِيَةَ بِحرارةِ السَّلامِ.

مَعًا نفْتَحُ الدربَ، لِيَكونَ العُمرُ قصيدةً مُكَلَّلَةً بِأَريجِ الصَّلاةِ.

- ٢ -

نَنْزِلُ مِنْ ذاتِنا المشرِقَةِ إلى أَرْضِ العالَمِ.

هَكذا مِنْ ذاتِنا الواحِدَةِ يَأْخُذُ شَكْلَهُ حَوْلَنا،

ومِنْ ذاتِنا الواحِدَةِ يَمْسَحُ جراحَ «الحَرْبِ»، لِيكونَ سَلامُ ذاتَيْنا بَلْسَمًا لنا وَلِما حَوْلَنا.

هكذا انكَشَفْنا مَعًا لِلعالَمِ، فَاسْتَمَدَّ مِنّا عُمْقَ البَصيرةِ، وانْحَدَرَتِ الكَواكِبُ مِنْ شاهِقٍ، لِتَأْنَسَ دَوْراتُها بِنا، وَأَخَذَتِ النُّجومُ بَريقَها مِنْ بَريقِ عينَيْكِ، لِتُرَنِّمَ في الفَضاءِ مَعَ حَناجِرِ الشّاروبيمِ، وَتَعَمَّدَ عالَمُنا بِماءِ قَناعَتِكِ.

هَكذا انْكَشَفْنا...

وكانَ العالَمُ اشتِعالًا مُضْنِيًا، فَأَطْفَأَتِ اشْتِعالَهُ رِقَّتُكِ السماوِيَّةُ، وَهَدَّأَ رَوْعَهُ سَلامُكِ العَميقُ، وَكَفْكَفَ دموعَهُ حَنانُكِ المضيءُ...

كانَتْ حَياتُنا تَنْمو في حَلَقَةٍ أَثيريَّةٍ، تَتَّسِعُ كلَّ يَوْمٍ، لِتَصيرَ أُفُقًا وَسَماءً.

كانَتْ حَياتُنا زَفْرَةً مُضيئَةً، تنطَلِقُ مِنْ قَلْبِ العالَمِ، صُعُدًا، نَحْوَ طَبَقاتِ السّماءِ.

وَمِنْكِ اسْتَمَدَّيْتُ القُوَّةَ، فَاتَّسَعَ بيَ البَقاءُ، وَانْحَفَرَ في سَريرَتي عَزْمُ المثابَرَةِ، وَطاقَةُ الحَياةِ الَّتي تَنْمو في كُلِّ اتّجاهٍ...

بَيْني وبَيْنَكِ كُلُّ هذا المكانِ الأليمِ...

بَيْني وَبَيْنَكِ كُلُّ رُكامِ الواقِعِ، وضَجيجُ «الحرْبِ».

بَيْني وَبَيْنَكِ وَجَعُ الأرامِلِ والثَّكالَى، وَصُراخُ الأَطْفالِ الجَرْحى.

بَيْني وَبَيْنَكِ هَذا الوَطَنُ المشْبَعُ بِالجِراحِ...

وَمَعَ ذَلِكَ لا شَيْءَ يَفْصِلُنا!

لا شَيْءَ يَكْسِرُ ٱلْتِئامَ ذاتَيْنا، ولا حَرارةَ اللِّقاءِ.

لا شَيْءَ يَنْمو بَيْنَنا إلّانا –

ونَحْنُ الأُغْنِيَةُ البِكْرُ المُنْحَدِرَةُ مِنْ حَنْجَرَةِ السَّماءِ،
تُناغي مَسْمَعَ الأَرْضِ لِتَرتَفعَ بها إِلى أَثيرِ الصَّلاةِ.

لا شَيْءَ يَنْمو بَيْنَنا إلّانا،

وَالكَوْنُ أَلْوانٌ تَذوبُ في ضَوْءِ عَيْنَيْكِ، لِتَغْمُرَني
بِرِضى الرَّبِّ.

لا شَيْءَ يَنْمو بَيْنَنا

إِلّا الكَلِمَةُ البِكْرُ التي ضاعَتْ في غُبارِ العالَمِ، ثُمَّ
انْكَشَفَتْ لَنا في الْتِئامِ ذاتَيْنا، حَيْثُ صَوْتُ الرَّبِّ
وَهُوَ يُبارِكُ قَلْبَيْنا.

***

ذاتانِ مِنْ أَلَقٍ

وَمِنْ عَبَقِ النَّسيمِ

تَتَعانَقانِ على صَدى الأَلْوانِ

في فَرَحٍ عَميمٍ...

ذاتانِ...

تَكْتَمِلانِ في ذاتٍ

وَتَلْتَئِمانِ في أُنْشودَةٍ بِكْرٍ

تُرَتِّلُها السّماءُ

لِتَسْمَعَ الدُّنْيا،

ولا شَيْءٌ سِواها

في خاطِرِ الصَّلَواتِ...

لا شَيْءٌ سِوى رَجْعِ البَهاءِ

على مَداها.

كُنْتِ ٱنْتِهاءَ الغايَةِ القُصْوى

وَأَحْلامَ الأماني،

وَمَشيئَةَ اللهِ الّتي بَثَّتْ بِقَلْبي

فَرْحَةً بِكرًا

تُبارِكُني لِأَرْحَلَ في الأَمانِ.

وبِكِ اكْتِمالُ الرَّبِّ في قَلْبي،

بِكِ ٱخْضَرَّتْ زَوايا الأَرْضِ

وَانْكَسَرَتْ حِصاراتُ الزَّمانِ

لِأَطيرَ فيكِ

كَما يَطيرُ النورُ في عُمْقِ الأَثيرِ.

لا شَيْءَ غَيْرُ صَفائِنا.

لا شَيْءَ غَيْري فيكِ...

أَسْجُدُ خاشِعًا

في نورِ عَيْنَيْكِ الوَثيرِ،

يا كُلَّ ذاتي

لَخَّصَتْ كُلَّ الوُجودِ

بِخَفْقَةٍ مِنْ قَلْبِها

وَأَوَتْ إِلى قَلْبي الصَّغيرِ.

***

تَعَلَّمْتُ مِنْكِ أَنْ أَدخُلَ العالَمَ بقلْبِ طِفْلٍ،

وَأَقْرَأَ ملامِحَ ذاتي في مَحَبَّةِ الآخَرينَ.

تَعَلَّمْتُ مِنْكِ أَنْ أَكونَ رَقيقًا كَالنَّسيمِ،

وَأُداعِبَ خَدَّ الحَياةِ بِقَناعةِ الأَصْفِياءِ.

تَعَلَّمْتُ مِنْكِ أَنْ أَشْعُرَ بِنِعْمَةِ الكَيْنونَةِ،

وَأُعَلِّمَ مَلامِحي أَنْ تَقْرَأَني في كلِّ ما حَوْلي.

تَعَلَّمْتُ مِنْكِ كَيْفَ تُعانِقُ الشَّمْسُ القَمَرَ،

وكَيْفَ تَرْقُدُ وُحوشُ البَرِّيَّةِ هادِئَةً في حِضْنِ الإنسانِ.

تَعَلَّمْتُ مِنْكِ كَيْفَ أُحِبُّ

فَتَكونَ المحبَّةُ لِباسًا لي يَقيني بَرْدَ الكُرْهِ.

تعَلَّمْتُ مِنْكِ أَنْ أَرْقى إِلى الآخَرِ

لِيَصيرَ لي أَخًا، وَيَحْمِلَ وَجْهي...

تَعَلَّمْتُ، آهِ... تَعَلَّمْتُ

أَنْ أَعْثُرَ على اللهِ في قَلْبي، بَعْدَ أَنْ لَمَسَ قَلْبَكِ الأَثيرِيَّ،

أَيَّتُها المَرْأَةُ الّتي اخْتَصَرَتْ جُموحَ الكَوْنِ بِثَباتِ عَزْمِها،

وَآخْتَصَرَتْ جَمالَ الصَّلاةِ بِسَكينَتِها السَّماوِيَّةِ،

ورِقَّةَ الملائِكَةِ في الفِرْدَوْسِ بِآبْتِسامَتِها الواحِدَة...

أَيَّتُها المَرْأَةُ التي سَكَنَ اللهُ فيها

فاخْتَصَرَتْ جَميعَ القِدّيسين...

- ٣ -

لَمْ يَكُنْ هذا العالَمُ صِنْوًا لَكِ، وَمَعَ ذَلِكَ آثَرْتِ البَقاءَ لِيَأْخُذَ عَنْكِ وَداعةَ السَّماءِ.

لَمْ يَكُنْ هذا العالَمُ صِنْوًا لَكِ، ومَعَ ذَلِكَ كَرَّسْتِهِ مَكانًا لَنا، فيَرْفَعُ عَنْهُ ثِقْلَ المادَّةِ، وَتَفاهَةَ المظْهَرِ.

لَمْ أَكُنْ صِنْوًا لَكِ، وَلَكِنَّكِ بارَكْتِني لِأَكونَ نِصْفًا مِنْكِ، وتَهْجَعَ روحي بَيْنَ جوانِحِكِ الرَّقيقاتِ، وَأَبْرَأَ مِنْ عِلَلي بِزَيْتِ مَحَبَّتِكِ الطَّاهِرِ.

لَمْ أَكُنْ صِنْوًا لَكِ، لِأَنَّني مِنْ هذا العالَمِ، أَثْقَلْتُ ذاتي بِصِفاتِهِ الصَّفيقَةِ، وَعَرَّيْتُ وِجْداني عَنْ جَشَعِ الأَرْضِ، فَمَسَحْتِ عَنّي تِفْلَ الحُضورِ، وَمَدَدْتِ لي يَدَكِ تُخْرِجُني نَحْوَكِ إِلى صَفاءِ الأَثيرِ...

يَدَكِ، يَدَكِ،

فَتَنْفَتِحَ عَيْني عَلى رُؤى البَصيرَةِ.

يَدَكِ، يَدَكِ،

فَأَرْتَفِعَ إِلَيْكِ نَقِيًّا، وَأَصْفى مِنْ تُرَّهاتِ العالَمِ.

يَدَكِ، آهِ... يَدَكِ،

فَأَعودَ إِلَيْكِ بِكْرًا، كَما الشَّهْقَةُ الأُولى، كَما النَّفَسُ الإلَهِيُّ الأَوَّلُ الّذي أَخْرَجَ الكَوْنَ.

- ٤ -

مَسَحَ وَجْهُكِ عَنْ وَجْهي غُبارَ «الحَرْبِ»، فَذابَ الحُزْنُ عَنِ الأَرْصِفَةِ، وَآبْتَسَمَ لِيَ الوَطَنُ.

صِرْتِ أَنْتِ وَطَني!

عَيْناكِ حُدودُهُ، وابْتِسامَتُكِ الأُفُقُ المُترامي، وشَعْرُكِ المُنْسَدِلُ سُهولُهُ وَاليَنابيعُ...

صِرْتِ وَطَني...

وَمِنْهُ أَسْتَمِدُّ هُوِيَّةً وَجُذورًا وَتُراثًا تَكْتَمِلُ بهِ ذاتي.

صِرْتِ وَطَني:

دَخَلْتُ إِلَيْهِ مِنْ شَبابيكِ عَيْنَيْكِ، وَكانَ لَيْلُهُما آنذاكَ يَبْرُقُ مِثْلَ ضَوْءِ الأَثيرِ؛ وَرَحَلْتُ... سافَرْتُ في مِساحاتِهِ الرائِعَةِ، أَقْطِفُ فيهِ زَهْوَ

المحبَّةِ، أُجَمِّعُها باقاتٍ لِأَضَعَها أَمامَ مَعْبَدِ قَلْبِكِ المفتوحِ.

سَجَدْتُ في قُدْسِ أَقْداسِكِ أُصَلّي أَمامَ أَسْرارِكِ الهائِلَةِ، وَمِنْ حَوْلي يَتَصاعَدُ بَخورُ سَلامِكِ، وَيَطيرُ بي إِلى حَيْثُ يَمْسَحُ رَبّي جَبيني بِزَيْتِهِ المقدَّسِ.

بِكِ أَنْتِ وَقَفْتُ أَمامَ الرَّبِّ، وَانْكَشَفْتُ لَهُ، حامِلًا هالَتَكِ المبارَكَةِ.

بِكِ أَنْتِ انْتَصَرْتُ على ذاتي، وَمَهَّدْتُ أَنايَ لِتَصيرَ مَعْبَرًا لِخَطْوِكِ المَرْيَمِيِّ.

وَعَبَرْتُ إِلَيْكِ مِنْ غُبارِ العالَمِ، مِنْ رُكامِ الواقِعِ المُهَشَّمِ بِـ«الحَرْبِ»، لِأَنْضَمَّ إِلى جَوْقَةِ الملائِكَةِ المُرَتِّلَةِ داخِلَ قَلْبِكِ.

عَبَرْتُ إِلَيْكِ لِأَسْكُنَ مَعْبَدَكِ الرّائعَ، وَأَغْسِلَ ذاتي مِنْ قُشورِ العالَمِ.

***

هَكذا سَكَنّا العالَمَ، وكانَتْ سُكْنانا مُعَبَّدَةً بالوُرودِ، تَذوبُ أَمامَها الصِّعابُ، وَتَتَبَخَّرُ الهُمومُ، لِتَصيرَ طِيبًا يُبَلْسِمُ جِراحَ أَيّامِنا.

سِتًّا وثلاثينَ عَمَرَتْ بِكِ السّعادَةُ، وَغَوَتِ الساعاتُ والثَّواني.

سِتًّا وثلاثينَ أَنْهَلُ مِنْ مائِكِ المقدَّسِ، أَتَعَلَّمُ الصّلاةَ والخُشوعَ، وكَيْفَ أَجْعَلُ ذاتي مُطَهَّرَةً، شَفّافَةً لِتَليقَ بِذاتِكِ.

وَمِنْكِ أَنْتِ انْشَعَبَتْ مِنْ ذاتَيْنا الرائِعَتينِ ذاتانِ مُشْبَعَتانِ بِصَفاءِ النّورِ ورِقَّةِ الأَثيرِ، لِتَبْقَيْ أَنْتِ الرّوحَ الّتي تَرْفُدُنا جميعًا بِبَرَكاتِ العُلى.

***

سَكَنّا العالَمَ أَرْبَعًا: ثَلاثَةً وَأَنْتِ؛ وكانَ نورُكِ يُرافِقُنا ثلاثَتَنا في مُنْشَعَباتِ الواقِعِ ودَهاليزِ الأَيّامِ، ويَفْتَحُ لَنا الطَّريقَ مُمَهَّدَةً نَحْوَ الآتي...

ثلاثَةً وَأَنْتِ كُنّا،

وَكانَ سَلامُكِ العَميقُ حارِسًا لَنا، يُذَلِّلُ أَمامَنا الأَهْوالَ وَالـمُلِمّاتِ، وَإِنْجيلُ قَلْبِكِ نَسْتَمِدُّ مِنْ آياتِهِ حِكْمَةَ الحياةِ، وَرِضى اللهِ.

ثلاثَةً كُنّا وَأَنْتِ،

وَكانَ حُضورُكِ السّماوِيُّ عِلاجًا لَنا مِنْ كُلِّ أَمْراضِ الأَرْضِ، وَمَحَبَّتُكِ الإِلَهِيَّةُ قُوتًا يَوْمِيًّا يُشْبِعُ أَرْواحَنا، وَابْتِسامَتُكِ الفِرْدَوْسِيَّةُ سُلَّمًا نَرْقى بِهِ إِلى مَعاريجِ السّماءِ...

فصل النِّعمة

- ١ -

خَرَجْتُ مِنْ قِشْرَتي إِلَيْكِ، فامْتَلأْتُ بالنِّعْمَةِ.

فاضَ النورُ...

وَكانَ كلَّ يومٍ يزدادُ في داخلي مِنْ كائِنِكِ الإِلَهِيِّ.

فاضَ النورُ مِنْ مَحبَّتِكِ السَّماوِيَّةِ.

صارَ العالَمُ، وقَدِ امّحى مِنْ حَولي، رَذاذًا حَوْلَ جِلْدِكِ الأَثيريِّ، وصِرْتِ أَنْتِ المدى الَّذي جَعَلَ الحُلْمَ أَرْضَ الواقِعِ، وَلَمَّ في قَلْبيَ الفَرَحَ الكَوْنيَّ يَنْبِضُ بِحرارةِ النُّورِ.

كُلُّ هذا العالَمِ، كُلُّ المدى، كُلُّ الكَوْنِ وَالفضاءِ

المتَرامي حَوْلي، وَنَبْضُ الرّوحِ الَّذي يُعانِقُ الكائناتِ يَمْتاحُ النِّعْمةَ مِنْ قَلْبِكِ المفْتوحِ لِلْمَلَكوتِ...

***

شَبِعَ كِياني مِنْكِ إذْ كانَ جائِعًا.

امْتَلأَ بكِ، بِنِعْمةِ قَلْبِكِ الَّتي مَسَحَتْهُ بِالفَرَحِ، وَشَفَّ، حَتّى صارَ كالضَّوْءِ.

فاضَتْ نِعْمَةُ غِبْطَتِكِ عَلَيَّ، كَما يَفيضُ نورُ اللهِ عَلى البَرايا.

اتَّشَحْتُ بِكِ، وَحَمَلْتُ ابْتِسامَتِكِ إِلى كُلِّ زَوايا حَياتي، لِتَنْفَتِحَ عَلى صَلاةِ المَلَإِ الأَعْلى، وَتَخْرُجَ مِنَ المحْدودِ إِلى أَبَدِ العِشْقِ المَمزوجِ بِرائِحةِ الهُيامِ.

فاضَتْ عَلَيَّ نِعْمَتُكِ...

وَبِيَدَيْكِ المبارَكَتَيْنِ مَسَحْتِني بِزَيْتِ حُبِّكِ، لِيَغْدُوَ الكَوْنُ زَهْرَةً بَيْضاءَ، يَتَفَتَّحُ بِها قَلْبي، وَيَتَلَوَّنُ بِالبَخورِ وَالصَّلَواتِ.

مَسَحْتِني بِزَيْتِ حُبِّكِ، فَٱرْتَقَيْتُ مِنْ حُطامِ الأَرْضِ إلى السَّماواتِ العُلى، وَحَزَمْتُ الحياةَ بِنَظْرَتِكِ المُغْتَبِطَة.

كُلَّما تَقَدَّمْتُ مَعَكِ خُطْوةً فاضَتْ نِعْمَتُكِ.

كُلَّما لامَسْتُ جَسَدَكِ بِجِلْدِيَ الأَرْضِيِّ فَاضَتْ نِعْمَتُكِ.

كُلَّما عانَقَتْ عَيْناكِ وِجْدانيَ الخاشِعَ فاضَتْ نِعْمَتُكِ.

كُلَّما غَمَرْتِ روحي بابْتِسامَتِكِ النورانِيَّةِ فاضَتْ نِعْمَتُكِ...

لَمْ أَعْرِفْ مِنْكِ غَيْرَ هذا النَّبْضِ الرائعِ مُنْذُ كَوَّنْتِني

مِنْ ذاتِكِ، وَأَخْرَجْتِني مِنْ خِوائي إلى وُجودِكِ المليءِ بِالنّورِ،

وَمُنْذُ شارَكْتِني بَشَرِيَّتي بِقَناعةِ القِدّيسينَ،

يا امْرَأَةً تَجَمَّعَتْ في صَمْتِها كُلُّ كَلِماتِ العالَمِ، وَكُلُّ قَصائِدِ الشُّعراءِ،

يا امْرَأَةً لَخَّصَتْ كُلَّ حَنانِ النِّساءِ بِلَمْسَتِها الرَّقيقةِ،

يا صَلاةَ الملائكَةِ وهِيَ تُرَتِّلُ في قَلْبِ الرَّبِّ،

يا مَلاكَ الانْتِظار...

- ٢ -

كُنْتُ قَبْلَكِ مَحْوًا.

كُنْتُ بِلا بَصَرٍ وَلا بَصيرَةٍ، ولا حَواسَّ...

وَحينَ رَأَيْتُكِ انْبَثَقْتُ مِنْكِ إلى هذا الكَوْنِ، وَامْتَلَأَتْ ذاتي بِكِ، فانْعَجَنَتْ بِالنورِ، وَانْفَتَحَتْ لَها أَبْوابُ الصُّعودِ إلى النِّعْمَةِ.

لَمْ يَعُدْ فِيَّ شَيْءٌ غَيْرُ النورِ المُنْهَمِرِ عَلَيَّ مِنْ عَيْنَيْكِ.

لَمْ يَعُدْ فِيَّ شَيْءٌ غَيْرُ صَوْتِكِ النّازِلِ إِلَيَّ مِنْ حَناجِرِ السّماءِ، وَشِفاهِ الملائكَةِ.

لَمْ يَعُدْ فِيَّ غَيْرُ وَجْهِكِ، يَرْسُمُ الكَوْنَ مِنْ حَوْلِهِ، لِكَي يَكونَ أَهْلًا لِمَجيئِكِ المبارَكِ...

***

كُنْتُ قَبْلَكِ مَحْوًا.

لَكِنَّني، حينَ كَوَّنْتِني، سَمِعْتُ أَصْواتَ العُلى تُرَتِّلُ في قَلْبِكِ، وَطارَتْ بيَ الغِبْطَةُ، تَحْمِلُني على قَوْسِ قُزَحَ، لِتَصيرَ الأَرْضُ مَدًى مُرَصَّعًا بِابْتِسامَتِكِ السّماوِيَّةِ، وَانْبَثَقَتْ مِنْ بَرَكَتِكِ الجِبالُ، وانْدَفَقَتْ خَيْراتُ الأَرْضِ، وَلَمْ يَعُدْ غَيْرُ النورِ الأَثيرِيِّ يُكَلِّلُ فَضاءَ روحيَ العابِقَةِ بِكِ.

صِرْتُ أُنْشودَةً لِلحُبورِ تَتَراقَصُ على شَفَتَيْكِ.

صِرْتُ باقَةً مِنَ السَّعادَةِ، تُرْفَعُ لَكِ، لِتُزَيِّنَ حَياتَكِ،

صِرْتُ قُبْلَةً عَلى شَفَتَيْكِ الإِلَهِيَّتَينِ تَعْبَقُ بِغِبْطَتِكِ.

صِرْتُ كُلَّ هذا الأَلَقِ الّذي يُحيطُ بِكِ، وَكُلَّ الخُشوعِ الذّاهِلِ في عَيْنَيْكِ الوادِعَتَينِ.

صِرْتُ، آهِ... صِرْتُ بِكِ النورَ الهاجِعَ في أَعماقِ البَسيطَةِ، يَحْمِلُ نِعْمَةَ الفَرَحِ إِلى هَذا العالَمِ البائِسِ...

- ٣ -

كُلَّما انْدَفَقَ الفَرَحُ الكَوْكَبِيُّ
تَوارى بِعَيْنَيْكِ
وَانْفَتَحَ الأُفْقُ عَنْ ظِلِّ رَبّي
يُسَوِّرُهُ أَرَجُ الأُغْنِياتْ...
كُلَّما انْدَفَقَتْ نِعْمَةُ السَّمْتِ
كُنْتِ تَبُثّينَها أَنْتِ مِنْ فَوْقُ
كَي تَمْسَحَ الكَونَ حَوْلي
بِزَيْتِ الحَياةْ...
وَفيكِ اسْتَضاءَتْ عُيونُ الأُلوهَةِ
يَحْضُنُها العِشْقُ في نورِكِ المطْمَئِنِّ.
وَما كُنْتُ أَعْرِفُ
أَنَّ نَقاءَ الأَعالي
تَفَجَّرَ مِنّي

لِأَنّي مَسَسْتُ بِقَلْبي فُؤادَكِ،
وَانْدَفَقَتْ فِيَّ نِعْمَتُهُ،
وَلِأَنّي
تَبارَكْتُ مِنْ نورِ عَيْنَيْكِ
في مَهْرَجانِ السَّماءْ...
وما كُنْتُ أعرِفُ
أَنَّ حُضوري، جَميعَ حُضوري،
سَيَغدو، مَتى مَسَّ عَينَيْكِ،
مِثْلَ الضِّياءْ،
وَلا كُنْتُ أَعْرِفُ، حَتّى رَأَيْتُكِ،
أَنَّ الإِلَهَ اسْتراحَ بِقلْبِكِ،
والحُلْمَ يُمْكِنُ أَنْ يَحْتَوي
مِثْلَ هَذا البَهاءْ!

***

كُلَّما مَرَّ يَوْمٌ علَينا
تَكامَلْتُ فيكِ،
وَعَلَّمْتِني أَنْ أَصيرَ أَثيرا...
كُلَّما مَرَّ يَوْمٌ عَلَيْنا
خَرَجْتُ مِنَ الوَقْتِ أَصْفى ضِياءً
وَأَغْزَرَ حُبًّا،
وَأَوْغَلْتُ في قَلْبِكِ المُنْحَني
فَوْقَ قَلْبي...
كَثيرًا... كَثيرا...
كُلَّما لامَسَتْني ابْتِسامَتُكِ
آنْكَسَرَ البَوْحُ
وَاخْتُصِرَتْ كَلِماتُ الوُجودِ،
فَلا شَيْءَ يُكْتَبُ، بَعْدُ:
آبْتِسامَةُ قَلْبِكِ تَخْتَصِرُ الأَبْجَدِيَّهْ.

وَلَيْسَ سِواكِ
عَلى مَدِّ هذا الوُجودِ الفَسيحِ:
سَكينَةُ روحِكِ روحُ الوُجودِ،
وغِبْطَةُ وِجْدانِكِ الحِكْمَةُ السَّرْمَدِيَّهْ...
وَبيْنَ يَدَيْكِ أَصيرُ إِلَهًا
لِأَغْدُوَ أَهْلًا
لِسِرِّ مَحَبَّتِكِ الأَبَدِيَّهْ...

***

لَيْسَ بَيْني وَبَيْنَكِ، بَعْدُ،
سِوى أَلَقِ الوَجْدِ.
ماذا أَقولُ، إذًا،
وَقَدِ انْكَشَفَ العِشْقُ
وانْزاحَتِ الكَلِماتْ
عَنْ صَدى الصَّمْتِ

حينَ يَصيرُ قَصيدتَنا،

وَعَنِ الحُبِّ وَهْوَ يُعَمِّرُ قَصْرَ الحياةْ؟

إِنَّها النِّعْمَةُ العُلَوِيَّةُ حَيْثُ الفَرَحْ

يَتَقَطَّرُ مِنْ خَلَلِ الضَّوْءِ،

شَيْئًا فَشَيْئًا،

وَيُشْرِقُ في أُفْقِ روحي

كَقَوْسِ قُزَحْ...

إِنَّها النِّعْمَةُ العُلَوِيَّةُ.

كُلُّ المدى

بَيْنَ روحي وَروحي

تَكَشَّفَ عَنْكِ

وَصارَ أَليفًا لَنا...

هُوَذا النُّورُ يَغْمُرُهُ بالهَناءْ.

يَتُها النِّعْمَةُ الأَبَدِيَّةُ،

ظَلّي خُطاها إِلَيَّ

لِأَسْكُنَ في مُقلَتَيْها

وَأَحْضُنَ كُلَّ البَهاءْ.

يَتُها النِّعْمَةُ الأَبَدِيَّةُ،

كوني خُطاها إِلَيَّ

لِأَكْسِرَ هذا القَضاءْ...

يَتُها النِّعْمَةُ الأَبَدِيَّةُ

ما كُنْتُ أَعْرِفُ أَنَّ السَّماءْ

قَلْبُها، وَيَدَ اللهِ بَسْمَتُها

بارَكَتْ كُلَّ هذا الفضاءْ...

فصل الخشوع

- ١ -

خاشِعًا في مَعْبَدِ عَيْنَيْكِ، أُصَلّي.

لا شَيْءَ مِن حَوْلي سِوى أَريجِ الوَجْدِ، والكَوْنُ غائِبٌ في ذاتِكِ الإلَهِيَّةِ.

لا شَيْءَ مِنْ حَوْلي سِوى ذاتِكِ تَغْزِلُ الصَّلاةَ ثَوْبًا مِنَ الضَّوْءِ، وَغِلالَةً شَفّافَةً مِنْ عِطْرِ الملائكة.

لا شَيْءَ غَيْرُ ذاتِكِ تَفيضُ سَلامًا،

وَفي رِضاكِ ابْتِسامَةُ اللهِ.

***

خاشِعًا في مَعْبَدِ عَيْنَيْكِ، أُصَلّي.

وصَوْتي يَخْرُجُ مِنْ حَنْجَرَتِكِ، يَتَحَرَّكُ نَحْوَ قُدْسِ أَقْداسِكِ، لِيَنْضَمَّ إلى تَرانيمِ الكَوْنِ، وَهِيَ تَجْتَمِعُ حَوْلَكِ أُنشوطَةً مِنْ غِناءٍ عُلَوِيٍّ، تَلْتَفُّ على هالَتِكِ، وَتُزَيِّنُ كائِنَكِ المَجْبولَ بالسَّماءِ.

خاشِعًا في مَعْبَدِ عَيْنَيْكِ، أُصَلّي.

كَأَنَّ كُلَّ أَصْواتِ الملائِكَةِ انْشَبَكَتْ هُنا، في هذِهِ النُّقْطَةِ الرّائِعَةِ مِنْ بَهاءِ الحُضورِ، لِتَخْتَصِرَ، بالصّلاةِ، خُشوعَ الكَوْنِ وَهُوَ يَلْثُمُ قَدَمَيْكِ الإلَهِيَّتَيْنِ، أَوْ رَجاءَ الصَّفاءِ وَهُوَ يَشِعُّ مِنْ عَيْنَيْكِ على أَرْضِ البَرايا.

خاشِعًا في مَعْبَدِ عَيْنَيْكِ، أُصَلّي.

كانَ صَدى الأَلْوانِ يَتَماوَجُ بَيْنَ كَلِماتي، وَيَتَرَدَّدُ زاهِيًا، في حُروفِ الصَّلاةِ، تَخْضَرُّ بِهِ الحُروفُ، وَتَمُرُّ مِنْ بَيْنِها الموسيقى... وَكانَ التَّبْريكُ المُتَعالي، بِوَتيرَةٍ مُسْتَمِرَّةٍ، نافورةً مِنَ الأَضْواءِ،

تَتَأَلَّقُ في بَرَكَةِ الانْخِطافِ... وَبَيْنَ الفَيْنَةِ وَالفَيْنَةِ، يَتَقافَزُ الحُبورُ، رَقيقًا كالرَّذاذِ، على امْتِدادِ المَعْبَدِ السَّماوِيِّ.

وَأَنا

كُنْتُ، في خُشوعي، أَسْمَعُ أَصْواتَ الأَثيرِ تُعانِقُ أُذُنَيَّ بِأَلْحانِها العُلَوِيَّةِ، وَتُسَمِّرُني، زاهِدًا، عَلى صَليبِ عِشْقِكِ المرفوعِ.

وَكُنْتُ، في هذا الاسْتِغْراقِ اللذيذِ، أَخْرُجُ مِنْ ذاتي لِأَصيرَ أُغْنِيَةً تَتَعالى نَحْوَ آذانِ السَّماءِ.

- ٢ -

كُلَّما رَكَعَ القَلْبُ فيكِ
تَفَتَّحَ في الوَعْدِ أُفُقٌ جَديدْ،
وَلَمْلَمَتِ العَيْنُ رَجْعَ الضِّياءِ المديدْ...
كُلَّما رَكَعَ القَلْبُ فيكِ
خَشَعْتُ عَلى سِدْرَةِ الكَوْنِ،
يَنْهَلُّ فَوْقي سَلامُكِ
أَصْفى مِنَ الضَّوْءِ،
أَعْذَبَ مِنْ سَلْسَبيلِ التَّسابيحِ
فَوْقَ الرَّجاءِ المديدْ...
كُلَّما رَكَعَ القَلْبُ فيكِ
سَمِعْتُ غِناءَ الأَعالي،
وَكانَ خُشوعي
يُضيءُ بِعيْنَيكِ قَلْبَ الليالي
وَيَحْفِرُ في رِئَةِ السَّمْتِ

صَوتَ القصيدَهْ
وَكُلَّ نُجومِ السَّماءِ
آلّتي حَمَلَتْ مِنْكِ أَنْوارَها،
وَاسْتَفَقْتُ على هَمْسِ أَحْلامِها
في الظُّنونِ المديدَهْ...
كُلُّ نَبْضِ الوُجودِ يُوَقِّعُ أُغْنِيَةَ الخَلْقِ
حَوْلَ كِيانِكِ،
كَيْ تستَحيلَ العُطورُ لُهاثَكِ،
يا امْرَأَةً من صَلاةْ...
وَفي قَلْبِكِ اغْتَسَلَتْ
نِعْمَةُ اللهِ
كَي يَتَفَتَّحَ كُلُّ وُجودي
وَتَبْزُغَ فيهِ الحَياةْ...

- ٣ -

سَوَّرْتُكِ بِذاتي لِأَحْميَكِ مِنْ نُقْصانِ الخارِجِ، فَمَلَأْتِني بِالنّورِ، وَاحْتَمَيْتُ أَنا بِكِ؛ وَلَمْ أَعْرِفْ أَنَّ كُلَّ هذِهِ القوَّةِ مُسْتَمَدَّةٌ مِنْكِ، وَكُلَّ هَذا الصَّفاءِ مَصْدَرُهُ رُوحُكِ الرَّقيقَةُ، وَكُلَّ حَرْفٍ كَتَبْتُهُ كانَ مِنْ رُؤْياكِ الشَّعْشَعانِيَّةِ وَهِيَ تَحْنو عَلَيَّ لِتَرِقَّ حُروفُها. كُنْتِ أَنْتِ الوَحْيَ المُنْهَلَّ عَلَيَّ مِنْ عَلُ، يَجْعَلُ الكَوْنَ قَصيدَةً بِكْرًا تَنقُلُ خُشوعَ المَلَكوتِ...

كُنْتِ أَنْتِ الروحَ الإِلَهِيَّةَ الّتي تُمْسِكُ بِيَدي، لِتَقودَني إِلى صِراطِ الغِبْطَةِ الحَقيقيَّةِ.

ولَيْسَ سِواكِ بَيْنَ ثَنايا حَياتي، بَيْنَ كُلِّ النِّساءِ اللَواتي يَهْجَعْنَ في العالَمِ مِنْ حَوْلي... تَخْرُجينَ إِلَيَّ مِنْ كُلِّ نَظْرَةٍ، وَكُلِّ حَرْفٍ يُنْطَقُ بِهِ، وَكُلِّ بَسْمَةٍ تَرْتَسِمُ عَلى ثَغْرٍ...

لَيْسَ سِواكِ بَيْنَ الصّلاةِ وَالصّلاةِ؛ أَخْشَعُ في قُدّاسِ عَيْنَيْكِ، مَحْمولًا على أَجْنِحَةِ بَخورِكِ، وَهَمْسِ تَراتيلِكِ النّازِلاتِ إِلَيَّ مِنْ فَوْقُ.

وَجْهي لَيْسَ وَجْهي وَأَنا في حَضْرَةِ بَسْمَتِكِ...

ذاتي لَيْسَتْ ذاتي وَأَنا في حَضْرَةِ بَسْمَتِكِ...

كِياني لَيْسَ كِياني وَأَنا في حَضْرَةِ بَسْمَتِكِ...

وَحَوْلي طُهْرُكِ الشَّفّافُ يَمْلَأُني، وَمُحيطي خَواءٌ يَمْتَلِئُ بِكِ، لِيَصيرَ أَرْضًا، وعالَمًا، وكَوْنًا...

كُلَّما مَسَسْتِ مُخَيِّلَتي طارَتْ بي يَدُكِ إِلى دُنْيَواتِ السَّديمِ، إِلى شُعَبِ البَدْءِ الأُولى، حَيْثُ تَهْجُسُ البَصيرَةُ بِكِ، وَتَذوبينَ في الرُّؤْيا فَيْضَ أَنْوارٍ شَفيفاتٍ، وَحَقْلَ أَريجٍ مِنْ صَلَواتِ الأَعالي، وقَوْسَ قُزَحٍ...

كُلَّما مَسَسْتِ مُخَيِّلَتي نَبَضَتِ الحُروفُ بِالزَّهْوِ،

وَذابَتْ في إِشْراقِ القَصيدَةِ.

يا امْرَأَةَ البَدْءِ وَالنِّهايَةِ،

يا كُلَّ الجِهاتِ ٱلْتَمَّتْ في خُطْوَةٍ واحِدَةٍ مِنْكِ،

يا كُلَّ عِباراتِ الشِعْرِ ٱخْتُصِرَتْ بِحَرْفٍ سالَ عَلى شَفَتَيْكِ،

أَيَّتُها القَصيدَةُ الرّائِعَةُ الّتي كَتَبَتْها يَدُ اللهِ على وِجْدانِ الدُّنْيا،

يا مَلاكَ الانْتِظار...

***

انْتَظَرْتُكِ مُنْذُ أَنْ كُنْتُ، وَلَمْ أَعْرِفْ أَنَّني أَنْتَظِرُ،

وَكُنْتِ دائِمًا فِيَّ، وَما عَرَفْتُ...

انْتَظَرْتُ ٱنْبِثاقَ عَيْنَيْكِ مِنْ فَوْقُ، مِنْ قِمَّةِ السَّمْتِ، فَإِذا بِهِما تَخْرُجانِ مِنْ قَلْبي، لِأَخْشَعَ، كُلَّ لَحْظَةٍ

في قُدْسِ أَقْداسِهِما.

انْتَظَرْتُكِ قَبْلَ أَنْ أَكونَ...

وَحينَ انْكَشَفْتِ لِيَ ٱرْتَسَمَتِ الدُّنْيا حَوْلي،
وَزَهَتِ السَّماءُ بِالضِّياءِ، وَابْتَسَمَ اللهُ لِهذا العالَمِ.

هَكذا كُنْتِ نَفْحَةَ التَّكْوينِ الّتي حَرَّكَتِ البَرايا،

وَخَرَجْتُ مِنْها صافِيًا، لِأَسْبَحَ في كِيانِكِ الدّافِئِ؛

وَمِنْ نِعْمَتِكِ أَنْتِ ارْتَفَعَ صَرْحُ حَياتي، وَكُنْتِ
المَهَنْدِسَ الَّذي شَيَّدَ عَماراتِها الشّاهِقاتِ، وَدَفَقَ
فيها الخِصْبَ والحَرارَةَ، ومَسَحَها بِالبَرَكَةِ...

هَكذا غابَتْ عَنِّي، مِنْكِ، الموانِعُ والسُّدودُ،
فَطارَتْ روحانا مُشْتَبِكَتَيْنِ، تَرْسُمانِ في قَلْبِ
هذا العالَمِ مِعْراجَ الصّعودِ. وَكُلَّما سِرْتِ بي إِلى
الأَمامِ انْكَشَفَ لي جَمالُكِ الملائِكِيُّ، وَذابَ في
حُروفِ القَصيدَةِ أَلْحانًا وَصَلَواتٍ وَقَوافِيَ...

هَكذا كانَتْ يَدُكِ بَرَكَتي،

وَابْتِسامَتُكِ نِعْمَتي الَّتي تَحْمِلُني إِلى سِدْرَةِ المُنْتَهى،

لِأَخْشَعَ أَمامَ اللهِ

وَهُوَ يَبْتَسِمُ لَكِ...

فصل الحزن

- ١ -

خَرَجَ الظَّلامُ مِنْ جُحْرِهِ، وَآنْسَلَّ إِلَيْنا، في غَفْلَةٍ، وَحاصَرَنا!

يَبِسَتِ الغِبْطَةُ.

صَمَتَتْ أَناشيدُ الفَرَحِ.

سَكَتَ صَوْتُ السّماءِ مِنْ حَوْلِنا،

وَغابَتْ تَراتيلُ الملائكَةِ...

أَقْفَلَ اللهُ عَينَيْهِ، فَتَوَقَّفَ آنْسِيابُ الضَّوْءِ، وكانَتِ العَتَمَةُ.

كُلُّ ما حَوْلَنا داكِنٌ، داكِنٌ... مُتَّشِحٌ بالسَّوادِ.

كُلُّ ما حَوْلَنا صامِتٌ كالموْتِ...

كُلُّ ما حَوْلَنا سَديمٌ قاتِمٌ، أَخْرَسُ كالقَبْرِ، يَقِفُ بَيْني وَبَيْنَ ذاتِكِ.

***

وَحْدي في بُرْجِ الحُزْنِ، وَصَوْتُكِ الهامِسُ يَأْتيني مِنَ الضَّفَّةِ الأُخرى.

وَحْدي في بُرْجِ الحُزْنِ، أَنْظُرُ إِلى روحِكِ الجَريحَةِ، وَأُحاوِلُ أَنْ أَتَلَمَّسَ طَريقي نَحْوَكِ، أَسْتَضيءَ بِابْتِسامَتِكِ، وَأَعودَ إِلى الالْتِئامِ...

وَحْدي، مُصَدَّعًا، أَتَحَرَّكُ بِلا رِجْلَيْنِ، وَأَتَمَسَّكُ بِلا يَدَيْنِ، وَأُحاوِلُ أَنْ أَراكِ، مِنْ غَيْرِ عَيْنَيْنِ، وَأَنْتِ تَغْرَقينَ في عُبابِ العَتَمَةِ...

وَحْدي، بَعْدَ أَنْ شَقَّني الظَّلامُ عَنْكِ، أَبْحَثُ عَنْ ذاتي، فلا أَجِدُها. أَتَلَمَّسُ سَبيلًا إِلَيْكِ، ولا

سَبيلَ، وَأُنصِتُ لِأَسْمَعَ صَوْتَكِ الرَّقيقَ، فَلا يُرَجِّعُ غَيْرُ هَمَساتِ الأَسى المعَرِّشِ مِنْ حَوْلي، وَنُواحِ الغِيابِ.

لا شَيْءَ... لا شَيْءَ غَيْرُ الصَّمْتِ...

كُلُّ ما حَوْلَنا صامِتٌ... صامِتٌ... كالقَبْرِ.

كُلُّ ما بَيْني وَبَيْنَكِ أَسْوَدُ الرّائِحَةِ.

كُلُّ ما بَيْني وَبَيْنَكِ نَزْعٌ أَقسى مِنَ المَوْتِ!

***

ضاعَ وَجْهي.

تَحَلَّلَ كِياني في الظَّلامِ.

رَحَلَ اللُّطْفُ عَنْ ذاتي – صارَتْ أَثْقَلَ مِنَ المعْدِنِ، وأَسْمَكَ مِنْ أَسْفَلْتِ الطرُقاتِ...

كُلُّ ما فِيَّ مُعْتِمٌ، مُعْتِمٌ...

ضَيَّعْتُ وَجْهَكِ: كانَ يَنْزَلِقُ، شَيْئًا فَشيْئًا، مِنْ بَيْنِ أصابِعي كَالزِّئْبَقِ. وراحَ الظَّلامُ يُحيطُ بي مِنْ كُلِّ جانِبٍ، وَيَغْمُرُ عَيْنَيَّ أَكْثَرَ فأَكْثَرَ، وَيَوْمًا بَعْدَ يَوْمٍ.

كُلُّ ما فِيَّ مُعْتِمٌ، مُعْتِمٌ...

كَيْفَ آنْسَلَّ الظَّلامُ إِلَيْنا، وَفَصَلَ بَيْنَ ذاتَيْنا، فَانْتَقَلْنا مِنَ العُرْيِ إِلى الكَثافَةِ، وَمِن الواحِدِ إِلى المزْدوِجِ؟

كَيْفَ آنْسَلَّ الظَّلامُ فَاتَّشَحَ بِهِ النّورُ الَّذي كانَ يَنْداحُ مِنْ عَيْنَيْكِ، وَسَكَنْتُ في العَمَهِ؟

كَيْفَ سَرَقَكِ اللَيْلُ الغادِرُ، فَأَبْعَدَكِ عَنّي، وَوَسَمَني بالوَحْدَةِ، فَلا أَرى، بَعْدُ، وَلا أَسْمَعُ، وَلا أَعي؟

كَيْفَ غِبْتِ، وَأَنْتِ امْتِلاءُ الحُضورِ، وَبَهاءُ النُّجومِ في فَضائي، وَتَرْتيلَةُ الأَمَلِ السَّماوِيَّةُ في حَياتي؟ وَكَيْفَ أَسْتَطيعُ، بَعْدُ، أَنْ أُناجِيَ النّورَ؟

لا شَيْءَ إِلّا الخَواءَ يُجَلِّلُ ذاتي.

لا شَيْءَ إِلّا الوَحْدَةُ تَبْتَلِعُ كِياني كَالأُفْعُوانِ.

لا شَيْءَ إِلّا الحُزْنُ المُمْتَدُّ عَلى بِحارِ قَلْبي –

هذا أَوانُ الحُزْنِ...

– ٢ –

هاجِعًا في ظَلامِ الكَآبَةِ
أَغْرَقُ في قِشْرَتي،
وَأُواري عُيونيَ بَعْدَكِ في سُحُبِ الدَّمْعِ
حَيْثُ تَضيعُ النُّجومْ.
أَرانيَ وَحْدي...
وَمِنْ بَعْدِكِ الذّاتُ لَمْ تَبْقَ ذاتًا
ولا النُّورُ نورًا...
وَأَرْخى البُكاءُ غِلالَتَهُ
خَلْفَ كُلِّ التُّخومْ...
هاجِعًا في فَراغِ البَقاءْ
أَمُدُّ إِلَيْكِ يَدًا
مِنْ تُرابٍ وَشَوْكٍ
وَأَسْحَبُها...
غَيْرَ أَنَّ الخَواءْ
يُكَسِّرُ كُلَّ أَصابِعِها،

وَيَرُدُّ نِدائِيَ رَجْعُ الهَباءْ...
كُلُّ ما فِيَّ ضاعَ...
وَضاعَتْ حُدودُ الزَّمانِ!
وَأَوْغَلْتُ في الصَّمْتِ،
أَوْغَلْتُ في لَيْلِ حُزْنِيَ
حَيْثُ تَموتُ الأَماني...
تَوارَيْتُ فِيَّ وَحيدًا،
وَما عُدْتُ أَعْرِفُ أَيْنَ أُواري دُموعي،
وَأَيْنَ حُدودُ كِياني...
فَيا رَبُّ، يا رَبُّ،
كَيْفَ هَجَرْتَ ابْتِسامَتَها فَجْأَةً،
وَهَجَرْتَ ابْتِسامَةَ روحي،
وَأَيْنَ حَلَلْتَ؟
وَيا رَبُّ، يا رَبُّ،
كَيْفَ انْكَسَرْتَ بِقَلْبي
وَكُنْتَ اكْتَمَلْتَ؟

- ٣ -

وَحْدي في ظَلامِ الغِيابِ الَّذي يُحيطُ بي.

لَيْسَ حَوْلي غَيْرُ خَواءٍ أَعْمى، أُحاوِلُ أَنْ أَسْتَعيدَ فيهِ تَكاوِينَ وَجْهِكِ وَشَفافِيَّةَ جَسَدِكِ.

لَيْسَ مِنْ حَوْلي غَيْرُ الغِيابِ، وَاللَيلُ يَغْمُرُني كَتُرابِ القَبْرِ.

أُفْرِغَتْ روحي مِنْ مَعْناها، وَخَلا كُلُّ ما حَوْلَها مِنَ المَعْنى.

لَمْ يَبْقَ غَيْرُ المُبْهَمِ، يَتَمَدَّدُ في الظَّلامِ الثَّقيلِ...

كُلُّ شَيْءٍ مُبْهَمٌ...

كُلُّ شَيْءٍ لَمْ يَعُدْ مُتَماسِكًا: ماعَتِ الأَشْياءُ مِنْ حَوْلي وَذابَتْ، وَالحُزْنُ امْتَزَجَ بِها وَعَجَنَها.

أَتَلَمَّسُ طَريقًا أَضَعُ عَلَيْها قَدَمي، وَلا طَريقَ...

أَتَلَمَّسُ وَجْهَكِ الملائِكِيَّ، فَلا يَخْرُجُ مِنَ الظَّلامِ
غَيْرُ وُجوهٍ بَصَقَها القُبْحُ، وَغَطّاها التَّشْويهُ.

أُنْصِتُ لِأَسْمَعَ صَدى ضِحْكَتِكِ الأَثيرِيَّةِ، فَلا
تَخْرُجُ لِأُذُنَيَّ غَيْرُ قَهْقَهاتِ الأَيّامِ تَسْخَرُ مِنّي.

لِماذا صَدَعَني المَوْتُ، وَشَقَّ ذاتي، وَسَرَقَ نِصْفَها
المضيءَ، لِيَتْرُكَ باقِيَها المُعْتِمَ يُواجِهُ وَحْدَهُ الظَّلامَ؟

وَحْدي في عالَمٍ يَتَفَتَّتُ حَوْلي.

وَحدي في انْفِجارِ الحُزْنِ الرَّهيبِ –

ذاتِي مُعْتِمَةٌ، حَزينَة...

ذاتي حَزينَةٌ... حتّى الموت!

***

أَرْكَعُ، وَحيدًا، في مَعْبَدِ ذاتيَ المُصَدَّعِ.

أَخْشَعُ... عَلَّ نورًا يَنْهَلُّ عَلَيَّ مِنْكِ، فَلا يُكاشِفُني

غَيْرُ الظَّلامِ.

يَدايَ مُسْبَلَتانِ في صَلاةِ التَّوَحُّدِ، وَلُهاثي بارِدٌ...
بارِدٌ...

كُلُّ ما فِيَّ لَمْ يَعُدْ مِنّي.

كُلُّ ما بي لَمْ يَعُدْ ذاتًا:

خَسِرْتُ هُوِيَّتي – كُنْتِ أَنْتِ الهُوِيَّةَ.

أُقْصِيتُ إِلى المَنْفى – كُنْتِ أَنْتِ وَطَني.

ضَيَّعْتُ مَلامِحي – كُنْتِ أَنْتِ وَجْهي.

وَها أَنا مَنْفِيٌّ في ذاتي، أَهيمُ إِلى هَدَفٍ، فَلا
أَصِلُ، وَتَضيقُ مِنْ حَوْلِيَ الجُدْرانُ والسُّدودُ –

كُلُّ شَيْءٍ في ذاتي ضَيِّقٌ بَعْدَكِ.

كُلُّ شَيْءٍ في ذاتي مُظْلِمٌ بَعْدَكِ.

لِماذا غِبْتِ؟ وَمَنْذا يُسَدِّدُ قَدَمي، وَيُمْسِكُ بِيَدي

لِتَنْكَشِفَ لِيَ الطَّريقُ؟

مَنْذا يَفْتَحُ بَصيرَتي بِنورِهِ، وَيُنَظِّمُ يَقيني وَحَياتي بِحِكْمَتِهِ، ويُكْمِلُ كِياني بِوُجودِهِ، وَيُضيءُ روحي بِنورِهِ السَّماوِيِّ؟

لِماذا حاصَرَكِ الظَّلامُ، وَغَطّاكِ بِغِلالَتِهِ الرَّهيبةِ؟

لِماذا ضاعَ كُلُّ هذا الأَلَقِ في حِصارِ الغِيابِ؟

لِماذا آنْحَجَبَ الضَّوْءُ الملائِكِيُّ مِنْ أَعماقِ ذاتي،
لِيَسْتَعْمِرَ أَنْحاءَها الحُزْنُ وَالظَّلامُ؟

نَفسي حَزينةٌ...

نَفْسي حَزينَةٌ... حَتّى الموت!

– ٤ –

ضاعَ بَيْني وَبَيْنَ السَّماءِ السَّبيلُ،
وَما عدْتُ أَعْرِفُ كِيْفَ تَكونُ الأماني،
وَكَيْفَ تَمُرُّ الثَّواني...
وَيَنْكَسِرُ الوَقْتُ...
لا وَقْتَ، بَعْدُ،
ولا زَمَنٌ يَتَحَرَّكُ
بَيْني وبَيْنَ خُطوطِ القَضاءْ
حَيْثُ تَحْتَرِقُ الذّاتُ في غَيْهَبٍ لاهِبٍ
يَتَحاصَرُ فيهِ كِياني،
وَيَسْقُطُ في قَهْقَهاتِ الهَباءْ...
كُلُّ جُرْحٍ أَراهُ بِذاتِكِ جُرْحي،
كُلُّ نَزْعٍ تَراءى عَلى الرّوحِ نَزْعي،
كُلُّ حُلْمٍ يَموتُ،
لِأَنَّكِ عَنّي تَوارَيْتِ، حُلْمي

وقَدْ ذابَ في حَشْرَجاتِ الخَواءْ.
غارَتِ الكَلِماتُ بِحَلْقيَ
وَآشتَعَلَ الصَّمْتُ.
ضَيَّعْتُ، بَعْدَكِ، حَرْفَ القَصيدَةِ
وَآنْكَفَأَ الشِّعْرُ، حِينَ رَحَلْتِ،
فلا شَيْءَ غَيْرُ الشُّحوبِ،
ولا شَيْءَ غَيرُ سُقوطي
عَلى لُغَةٍ مومِياءْ...
وَلا رُؤْيا بَعْدَ أَنْ فَقَدَ القَلْبُ عَيْنَيْكِ:
كُلُّ الصَّلاةِ هَباءٌ،
وَكُلُّ الحروفِ بُكاءْ...
وَالمدى في صَقيعِ المسافَةِ هَوْلٌ
وَهذا الوُجودُ ظَلامٌ ثَقيلُ.
فَيا رَبُّ، يا رَبُّ،
كَيْفَ هَجَرْتَ حياتي

لِيَسْكُنَها حُلُمٌ مُسْتَحيلُ؟
وَكيفَ هَجَرْتَ ابْتِسامَتَها
وَهَجَرْتَ ابْتِسامَةَ روحي،
وَأَيْنَ حَلَلْتَ؟
وَكَيْفَ انْكَسَرْتَ بِقَلْبي
وَكُنْتَ اكْتَمَلْتَ؟؟

***

لَكِنَّ شُعاعًا مِنَ آلنورِ نَزَلَ عَلَيَّ مِنْ قَلْبِ السَّماءِ، في رِحلةِ الحزْنِ هذه، رَدَّ لِيَ الأَمَلَ، وَسَكَّنَ جروحَ قَلْبي، وَفَتَحَ فيهِ رَجاءَ الطّفولَةِ.

وَحينَ آلْتَفَتُّ إِلى فَوْقُ آنْفَتَحَتْ عَيْني، مرَّةً أُخرى، وَانشَقَّتْ غِلالَةُ الحُزْنِ.

وَعِنْدَما نَظَرْتُ، وَجَدْتُكِ تَبْتَسِمينَ لي، مِنْ قَلْبِ الضِّياءِ، عَبْرَ تَرانيمِ الغِبْطَةِ داخلَ الملَكوتِ...

فصل الصعود إلى قلب الملكوت

- ١ -

النّورُ يَبْتَسِمُ في الزَّوايا، وَعَبَقُ الصّلاةِ يَتَقافَزُ في الأَمْداءِ المَفْتوحَةِ، وَالغِبْطَةُ البَيْضاءُ قَلْبٌ نابِضٌ،

وَأَنْتِ،

بِابْتِسامَتِكِ الوارِفَةِ، تُحيطُ بِكِ الملائِكَةُ في أَجْمَلِ حَلَقَةٍ سَماوِيَّةٍ تُعْقَدُ لِصَلاةِ السَّلامِ.

كُلُّ شَيْءٍ يَنْبِضُ حَوْلَكِ بالأَبْيَضِ.

كُلُّ صَوْتٍ حَوْلَكِ أَبْيَضُ... أَبْيَضُ...

كُلُّ هَمْسٍ... كُلُّ صَلاةٍ...

وَلَيْسَ تَحْتَ مَوْطِئِ قَدَمَيْكِ غَيْرُ ورودٍ مِنْ نورٍ، خوفًا مِنْ أَنْ يَنْجَرِح جِلْدُكِ الرَّقيقُ...

النّورُ يَبْتَسِمُ في الزّوايا،

يُحيطُ بِكَ هالَةً،

وَيَرْسُمُ لَكِ جانِحَيْنِ رَقيقَيْنِ، تَرْتَفِعينَ بِهِما إِلى سَمْتِ السَّماءِ.

***

في هذا المقامِ الرّائِعِ أَراكِ، مِنْ قَلْبِ الرُّؤْيا النّازِلَةِ عَلَى بَصيرَتي، لِتَجْعَلَها أَقْرَبَ إِلى قَلْبِكِ الوارِفِ.

في هذا المقامِ الرّائِعِ أَراكِ، مُجَلَّلَةً بِالصَّفاءِ، مُغَطّاةً بِنورِ الأُلوهَةِ، تَرْفَعُكِ يَدُ اللهِ إِلى قَلْبِ الرِّضى الأَبَدِيِّ.

***

كانَتِ السّماءُ انْخِطافًا أَبيضَ، هامِسًا كَالهَسيسِ، تُحَوِّمُ فيهِ الأَرْواحُ البَيْضاءُ كَالفَراشاتِ، وَأَنْهارُ الضِّياءِ تَتَدَفَّقُ مِنْ كُلِّ صَوْبٍ، فَتَلْتَقي في الوَسَطِ،

تَتَجَمَّعُ في بَحْرِ نورٍ، حَيْثُ تُرَنِّمُ جمالاتُ الوُجودِ.

وَكُنْتِ أَنْتِ، في قَلْبِ هذا الانْخِطافِ، هالةً أَثيرِيَّةً تَشِعُّ أَنوارًا، مِنْ كلِّ صَوْبٍ، وَتَتعانَقُ مُنْعَطِفَةً حَوْلَ السِّدْرَةِ السَّماوِيَّةِ.

كانَتْ في قَلْبِ هَذِه الهالَةِ أَصْواتُ الملائِكَةِ هادِئَةً، تُصَوِّرُ قُدّاسَ الانْخِطافِ، وَتَنْحَدِرُ مِنْ حَبْلِ صَوْتِ اللهِ إِلى قَلْبِكِ المفتوحِ...

نورٌ على نورٍ...

وَالأَلْوانُ كُلُّها في أَرْوَعِ تَجَلِّياتِها، تَتَحَرَّكُ داخِلَ الأَبْيَضِ.

كُلُّ ما فِيكِ الآنَ أَبْيَضُ،

وَيَداكِ مُسْبَلَتانِ، تُغْدِقانِ الرَّجاءَ على قَلْبِيَ المحَطَّمِ...

***

كُلُّ شَيْءٍ ضِياءْ...

وَرَذاذُ الصَّلاةِ يَهُلُّ على القَلْبِ،

يَرْفَعُهُ نَحْوَ قَلْبِ السَّماءْ...

***

كُلُّ شَيْءٍ ضِياءْ.

كُلُّ ما فيكِ يُمْزَجُ بالنورِ

في قَلْبِ هذا الرَّجاءْ.

كَانَ وَجْهُكِ، في عُمْقِ المَلَكوتِ، يَميلُ نَحْوي، وَعَيْناكِ تَنْظُرانِ إلى عَيْنَيَّ، تُرْسِلانِ، عَبْرَ بَصيرَتي، بَلاسِمَ الرّوحِ لِأَسْتَكينَ. وَكُنْتُ أَشْعُرُ، مِنْ أَعْماقِ حُزْنِيَ القاتِلِ، بِمَلامِسِكِ تُكَفْكِفانِ دُموعي، وَتَقودانِ قَدَمَيَّ نَحْوَ الخَلاصِ.

كُنْتُ أَشْعُرُ أَنَّكِ قُرْبي، وَأَنْتِ في أَعْماقِ المَلَكوتِ، تَسْكُنينَ كُلَّ زاوِيَةٍ، وَكُلَّ ذَرَّةٍ حَوْلي، وَكُلَّ نَفَسٍ. كُنْتُ أَتَنَفَّسُكِ في شَهيقي، وَأُعانِقُكِ في حُروفِ قَصائِدي، وَأَلْمُسُ وَجْهَكِ الطّاهِرَ عِنْدَما يَتَحَرَّكُ اليَراعُ عَلى الوَرَقِ.

كَيْفَ غِبْتِ وَأَنْتِ في قَلْبِ المَلَكوتِ تُغْدِقينَ الرّجاءَ على أَحْزانِ قَلْبي؟

كَيْفَ غِبْتِ وَأَنْتِ في قَلْبِ المَلَكوتِ تَرْسُمينَ حَوْلَ كائِني قَوْسَ قُزَحٍ، وَتَرْمينَ في عَيْنَيَّ مَشاهِدَ

النورِ الآتِيَةِ مِنْ فَوْقُ؟

هَلْ غِبْتِ؟

ولَكِنْ... كَيْفَ تَغيبينَ وَأَنْتِ كُلّي، وَروحُكِ تَسْكُنُ هذا الجَسَدَ مَعَ روحي، وَعَيْناكِ تُسَدِّدانِ خُطايَ في رِحْلَةِ النّورِ الطّويلَةِ؟

كَيْفَ تَغيبينَ وَأَنْتِ في أَعْماقِ الفِرْدَوْسِ، تُنْزِلينَ عَلَيَّ آياتِ الصَّبْرِ، وَرَذاذَ السَّلامِ والرَّجاءِ؟

كَيْفَ تَغيبينَ وَأَنْتِ روحُ الصّلاةِ الّتي يَرْفَعُها قَلْبي إلى عُمْقِ المَلَكوتِ؟

***

غارِقًا في انْتِظاري،
أَرْفَعُ نَحْوَكِ كَفَّيَّ حينَ أُصَلّي،
وَأَشْعُرُ أَنَّ ابْتِسامَةَ قَلْبِكِ
في كُلِّ حَرْفٍ،

وَأَنَّكِ ما زِلْتِ كُلّي...
غارِقًا في صَلاةِ ٱنْتِظاري
أُعانِدُ حُزْني،
وَأَجْبُلُهُ بِحُبورِ السَّماءِ ٱلّذي انْهَلَّ مِنْكِ
لِيَمْسَحَ عَنّي انْكِساري...
وَأَعْرِفُ أَنّي
عَلى قَلْبِكِ المطْمَئِنِّ
أَمُرُّ كَخاطِرَةٍ تَسْتَضيءُ بِعَيْنَيْكِ
كَيْ تُشْعِلَ الشِّعْرَ مِنْ حَوْلِها،
أَوْ كَأَنّي
حُروفٌ يُظَلِّلُها الوَحْيُ.
آهِ، دَعيني
أُلامِسْ صَلاتَكِ مِنْ هَهُنا،
وَانْظُريني
وَقَدْ رَدَّ ضَوْؤُكِ صَوْتَ الرَّجاءِ

إِلى قَلْبِيَ المتَحَطِّمِ...
مُدّي إِلَيَّ يَدًا مِنْ أَثيرٍ وَضَوْءٍ،
وَلُمّي عَنِ القَلْبِ هذا الأَسى،
وَارفَعيني...

- ٣ -

تَتَحرَّكُ بَصيرَتي في رِواقِ الأَنْوارِ نَحْوَكِ، تَرْنو إِلَيْكِ؛ وَأَنْتِ، في ابْتِسامَتِكِ، تُمْسِكُ يَدُكِ بِيَدِ الرَّبِّ.

كُلَّما انْكَشَفْتِ لِبَصيرَتي أَكْثَرَ ابْتَعَدْتِ.

كُلَّما نَزَلْتِ إِلى خاطِري، وَانْبَثَقْتِ بَيْنَ حروفي، ابْتَعَدْتِ.

كُلَّما عانَقَتْكِ روحي ٱنْتَظَرْتُكِ عِنْدَ حُدودِ السَّماءِ، وَفي مَعْبَدِها الأَثيرِيِّ ٱلَّذي تَخْشَعينَ فيهِ.

كُلَّما انْكَشَفَتْ بَصيرَتي انْتَظَرْتُكِ أَكْثَرَ:

انْتَظَرْتُكِ في زَقْزَقاتِ العصافيرِ، وَرَفّاتِ أَجْنِحَتِها،

وَفي حَفيفِ الغُصونِ تَتَعانَقُ مَعَ الهَواءِ،

وَفي ٱرْتِعاشِ الماءِ على صَفْحَةِ البُحَيْراتِ،

وَفي أَجْراسِ الكَنائِسِ تَقْرَعُ داعِيَةً إِلى مُناجاةِ الرَّبِّ،

وَفي القَصائِدِ الَّتي تَذوبُ شِعْرًا، لِتَجْعَلَ القَلْبَ هَمْسَةً مِنْ أَثيرٍ...

كُلَّما انْكَشَفَتْ بَصيرَتي وَقَفْتُ على حُطامِ قَلْبي أُناجيكِ وَأَنْتَظِرُكِ...

أَراكِ تَنْحَنينَ عَلَيَّ مِنْ فَوْقُ، تَلُمّينَ هذا الحُطامَ بِحَنانِكِ الوارِفِ، تُقَبِّلينَ روحي بِشَفَتَيْكِ الإِلَهِيَّتَيْنِ،

تَلْمُسينَني بِانْخِطافِكِ، لِأَشِعَّ بِكِ...

أَحْمِلُكِ مَعي... دائِمًا مَعي...

أَنْتَظِرُ الْتِئامي فيكِ مَرَّةً أُخرى.

أَنْتَظِرُكِ، وَأَنا أَبْتَهِلُ لِنورِكِ العُلْوِيِّ.

أَنْتَظِرُكِ، لِأَبْدَأَ مَرَّةً أُخْرى مِنْ خارِجِ هذا العالَمِ،

وَأنا أَعْرِفُ أنَّكِ تَقودينَ خُطايَ...

أَنْتَظِرُكِ، وَأَعْرِفُ أنَّكِ تُشْرِقينَ عَلى روحي مِنْ عَلْياءِ المَلَكوتِ.

أنْتظِرُكِ في حَناجِرِ المصَلِّينَ،

وفي تَرْجيعِ الصَّلَواتِ وَتَصاعُدِ البَخورِ،

وفي صَوْتِ اللهِ الهامِسِ داخِلَ المطَرِ وَالشَّمْسِ، والحُزْنِ والفَرَحِ،

وَفي تنهُّداتِ العاشِقِينَ، وحَنانِ الأُمَّهاتِ،

أَنْتَظِرُكِ... أَنْتَظِرُكِ...

وَأَنا أَعْرِفُ أَنَّكِ تحْرُسينَني مِنْ فَوْقُ،

يا مَلاكِيَ الحارِسَ،

أَنْتَظِرُكِ... أَنْتَظِرُكِ...

يا مَلاكَ الانْتِظارِ...

آذار ٢٠١٧

المحتويات



يولا... زَوْجَتي الّتي غابَتْ، وَلَكِنَّها لَمْ تَرْحَلْ، بَلْ تَظَلُّ مُقيمَةً في قَلْبي وروحي، إلى الأَبَد...

يولا... زوجتي لِستٍّ وَثَلاثينَ خَلَوْنَ، خَرَجْتُ مَعَها إلى العالَم، مُنْذُ عَرَفْتُها، قَبْلَ "الحَرْبِ" وَبَعْدَها، وَظَلَّتْ دائِمًا نِصْفَ ذاتِيَ الثّاني، وَنِعْمَةَ حَياتي، وَبَرَكَةَ النّورِ في قَلْبي...

يولا الَّتي خَطَفَها القَدَرُ مِنّي لِيَبْدَأَ عَهْدُ الحُزْنِ، تَظَلُّ دائِمًا مَلاكِيَ الحارِسَ في السَّماء، تُسَدِّدُ خُطايَ، وَتُمَهِّدُ لي طَريقي، خَوْفَ أَنْ أَعْثُرَ.

يولا الّتي انْتَظَرْتُها طَوالَ عُمْري، وَحَلَّتْ فِيَّ، وَفي وَلَدَيَّ، نِعْمَةً إِلَهِيَّةً، تَرْقُبُني الآنَ مِنْ أَعْماقِ الفِرْدَوسِ، مِنْ قَلْبِ اللهِ، وَتَبْقى مَلاكَ انْتِظاري، أَبَدَ الدَّهْرِ...